الزّوايا السنوسية في فـزان ودورها الدّعـــوي والاجتماعـــي والاقتصـــادي والجهـــادي

د. أبوبكر سالم المهدي الشّيباني ـ الهيئة الليبية للبحث العلمي – سبها

الملخّص :

يتناول هذا البحث الزوايا السنوسية في فـــزان بشكل خاص ونشأتها وعلاقتها بالزّوايا السنوسية الأخـــرى في برقة وطرابلس وخارج ليبيا ، ودور هذه الزوايا وأهميتها في المجال الدعـــوي والاجتماعي والاقتصادي والجهادي ، حيث كانت الزّوايا السنوسية - التي تُنسب إلى الســـيد محمّـد بن علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية - أظهر الزّوايا في تحـــويل كثير من المدن والقرى والـواحات والأقطار الأفريقية إلى مجتمعات ذات نشاط ثقافي واجتماعي واقتصادي وجهادي واضح ، بل وجعلت هذه الأقطار كيانات سياسية تدافع عن الإسلام وتكافح من أجل التحرر والاستقلال ضد الغزو الأجنبي لأقطار غرب ووسط وشمال أفريقيا وأخص بذلك الغزو الفرنسي لغرب ووسط وشمال أفريقيا، والغزو الإيطالي لليبيا .

المُقدمـــة :

اتخذت الحركة الســنوسية إنشاء الزّوايا السنوسية وسيلة لنشـر مبادئها وتعاليمها وتكوين أفــرادها ، وكان لإقليم فزان نصيبه من هذه الزوايا التي كانت منارات إسلامية في وسط الصحراء الليبية ؛ حيث لعبت دوراً كبيراً في تعليم الناس القـراءة والكتابة وتعليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وغيرها من العلوم ، وكانت الزوايا السنوسية وحدة متكاملة سياسية واجتماعية واقتصادية وتعليمية وروحية باعتبار الزاوية أداة الحركة السنوسية ، وقد دعي الشيخ محمد بن علي السنوسي ([1]) مؤسس الحركة إلى هذا النظام بالحكمة والموعظة الحسنة وآثر السلم في الإصلاح لإرساء قواعده في نفوس الأفراد لبنة لبنة ، كما هادن في مراحل الدعوة الأولى القوى الموجودة في المجتمع ليتفرغ (بكل قواه) للعمل في بناء مجتمعه ([2]).

وأما علاقته بالزوايا السنوسية ؛ فيعتبر السيد محمد بن علي السنوسي الخطّابي الإدريسي هو مؤسسها وتنتسب الزوايا السنوسية إليه ؛ كما ورد ذلك في الرسالة الموضوعـــة في نبذة سرية من أحوال بني صاحب الرسالة ذوي الفضل والجلالة

والعلا حائزي قصب السبق في كلا ملأ المسماة بالدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية ([3]).

وتهدف هذه الدراســـــة إلى تسليط الضوء على فترة مهمة من تاريخ ليبيا الحديث، وأخص بالذكر الزوايا السنوسية في فـزان .

وتعالج هذه الدراسة الزوايا السنوسية في فـــزّان ودورها الدعـــوي والاجتماعي والاقتصادي والجهادي .

مشكلة البحــث :

لمعالجة هذا الموضوع التاريخي المميز انطلقت من إشكالية هامة مفادها : متى نشأت الزوايا السنوسية في فزان ؟ ، وما علاقاتها بالزوايا السنوسية الأخـــرى في برقـة وطـرابلـس وخارج ليبيا ؟ ، وما هو دور وأهمية هذه الزوايا في المجال الدعوي والاجتماعي والاقتصادي والجهادي ؟ .

المنهج المتبــع :

وللإلمام بأطراف الموضوع والإجابة على هذه التساؤلات انبعث أكثر من منهج في هذه الدراسة ، وهي كالتالي :

المنهــج التاريخي الوصفي : اتبعته في رصد جُلّ الأحداث والعمل على ترتيبها ترتيباً كرونولوجياً ووصفها حسب خطة البحث ، والمنهج التحليلي : اعتمدت عليه في دراسة وتحليل الوقائع والآثار الواضحة والبارزة للزوايا السنوسية في فزان وصولاً لاستنتاج الحقائق العلمية .

وننوه على أن موضوع الزّوايا السنوسية في فـزان يُعتبر موضوع بكر والمعلومات عنها شحيحة جداً ولا يكاد يذكر عنها في المصادر التاريخية إلا القليل منها ، والمكتبة العربية خلت من مرجع يحمل عنوان " الزوايا السنوسية في فزان " ، وبالتالي فإن الباحث سيتحدث عن هذه الزّوايا بقدر ما توفرت له من معلومات حوتها بعض المصادر التاريخية وسيميط اللثام عن هذه الزوايا وأهمها وكيف كانت تعمل وأهميتها في ربط المدن والواحات الليبية بعضها ببعض ، وكيف كانت تقوم بمد جســـور التّواصل مع البلدان الأفريقية ، وتأمينها للطـــرق التجارية ، فالزوايا السنوسية كانت عاملاً مهماً في تحويل كثير من المدن والقرى والواحات والأقطار الأفريقية إلى مجتمعات ذات نشاط ثقافي واجتماعي واقتصادي وجهادي واضح ، بل وجعلت هذه الأقطار كيانات سياسية تدافع عن الإسلام وتكافح من أجل التحرر والاستقلال ضد الغزو الأجنبي لأقطار

غرب ووسط وشمال أفريقيا ، وأخص بذلك الغزو الفرنسي لغرب ووسط وشمال أفريقيا ، والغزو الإيطالي لليبيا .

ويعتبر انتشار الزوايا السنوسية في فزان طبيعياً ، باعتبار فـــزان جزء لا يتجزأ من ليبيا التي كانت تُسمّى حينها ولاية طرابلس الغرب وأحياناً تسمى ولاية طرابلس الغرب وبرقة ، وإقليم فزان يأتي في المرتبة الثالثة من حيث الأهمية وعدد السكان بعد طرابلس وبرقة ، وباعتبار سكان ليبيا مرتبطين ببعضهم ارتباطا وثيقاً والقبائل الليبية تنتشر في الأقاليم التاريخية الثلاثة (طرابلس - برقة - فزان) ، فمن الطبيعي أن تنتشـــر الزوايا السنوسية في فـــزان أسوة ببرقة وطرابلس وإن كان عدد الزوايا السنوسية قليل في فزان بالمقارنة مع برقة وطرابلس ، فهذا يعود إلى قلة عدد سكان فزان وبعد الإقليم عن مركز الحركة السنوسية الموجود في البداية بمدينة البيضاء من سنة 1843م، ثم انتقل إلى الجغبوب سنة 1856م ؛ بإقليم برقـــة ([4]).

ونظام الزوايا يُعتبر التطبيق العملي للفكرة الإصلاحية التي نادت بها الحركة السنوسية ؛ ويبدو لمن يتتبع الزوايا السنوسية أن المؤسس مال نحو الصحارى والواحات والبدو أكثر من ميله للمدن ، إذ رأى صرخة الإصلاح تضيع في ضجيج المدن ولذلك اختار البوادي .

ويعد عام 1837م عام ظهور الجمعية السنوسية أو ما عرفت بعدها بالحركة السنوسية ، وذلك عندما أقام الشيخ محمّد بن على السنوسي في قابوس في ضواحي مكة أول زاوية - المركز السياسي - الإداري للجمعية ، وانتشر نشاط السنوسيين نشاطاً كبيراً سنة 1843م ، وذلك بعد أن أسس الشيخ محمد بن علي السنوسي زاوية جديدة في الجـــزء الأوسط من برقة (البيضاء) التي صارت مقره ، وصار عدد الزّوايا منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية القرن التاسع عشر يتكاثر فقد أقيمت خمس وأربعون زاوية في برقـــة ، و (28) في طرابلس و (21) في فزان والكفرة و (17) في الجزيرة العربية وتونس و (21) في مصر ، والتي كانت مركّزة في الصحراء الغربية ، و(14) في السودان الأوسط (الفرنسي) ، وهكذا كان عددها حتى نهاية القرن التاسع عشر (146) زاوية ([5]) .

خطـة البحـث :

ولكي تغطي هذه الدراســـــة الحقبة التاريخية المستهدف دراستها رأى الباحث تقسيمها إلى ستة مباحث ، تسبقها مقدمة وتليها خاتمة ، وجاءت على النحو التالي :

المبحث الأول : تعريف الزاوية السنوسية وكيف أسهمت في تأسيس الحركة السنوسية ، والمبحث الثاني : نشأة الزوايا السنوسية في فـــزان ، وأهم هذه الزوايا ، وفي المبحث الثالث : أهمية الزوايا في مجال الدّعوة إلى الإسلام ونشر اللغة العربية المبحث الرابع : أهمية الزوايا الاجتماعية ، والمبحث الخامس : أهمية الزوايا الاقتصادية المبحث السادس : أهمية الزوايا الجهادية ، وسوف - أقوم بمعالجة هذه القضايا الست باعتبارها محور هذا البحث - وسأتناولها بالتفصيل .

المبحث الأول ـ تعريف الزاوية السنوسية ومساهمتها في تأسيس الحركة السنوسية :

تتطلب فكرة معالجة الزاوية الرجوع إلى أصلها وعلاقتها بالرباط ، ذلك أن الثابت تاريخياً أن الزوايا تطور لرسالة الأربطة في شقها التعليمي ، وقد أطلق لفظ الرباط في الأصل على نوع من الثكنات العسكرية التي تبنى على الحدود الإسلامية وقرب الثغور ، يقيم فيها المجاهدون ـ المرابطون ـ الذين رابطوا في هذه الأمكنة للدفاع عن دار الإسلام بسيوفهم وخيولهم (6) .

ومن هذا المنطلق تأسست أربطة ساحلية من أقصى المغرب إلى الإسكندرية ، وأربطة صحراوية من طرابلس شمالاً إلى خليج غانا عبر الصحراء الكبرى ، ثم اتسعت هذه الأربطة وتزايدت بعد أن غلبت رسالتها التعليمية على رسالتها العسكرية .

ذلك أن الرباط لم يكن حصناً عسكرياً فقط بل كان نبراس إشعاعٍ للعلوم العربية والإسلامية ومركز لثقافة العروبة والإسلام ، فمن حيث هو معهد تعليم وورّاقة ودار كتب لعب دوراً أساسياً في تثقيف السودانيين - الأفارقة - في الدين واللغة وسرعان ما أسست حول الرباط مدينة لتمكين الطلبة وأهاليهم من أسباب المعاش الكريم ، فصار الرباط مدينة علم (7) .

والزاويـــــة : اسم كان يطلق من قِبل الحركة السنوسية على مجتمع الدراويش عند بعض الطرق الصوفية مثل : القادرية والعروسية والتيجانية وغيرها؛ حيث كانوا يُمارســون حياتهم الدينية القائمة على التجرد من الدنيا (الزّهــد) منصرفة عن الشـــؤون الاجتماعية العامة ، لذلك لم تكن لهذه الطّـــرق في دورها الأول شأن سياسي ، بل كان التباغض والمعاداة منتشـــر بين كل طريقة وأخــرى، فقد بات العمل المشترك لتحقيق غاية واحـــدة متعذراً ، حتى أن طرقاً كهذه صفاتها ما برحت حتى اليوم كثيرة ؛ ولكن ليس لها شأن سياسي ، بل ولن يكون لها شأن سياسي ما دامت

على هذه الحالة من الفرقة ، وقد قامت الزوايا بدور رائد في إرساء الحياة العلمية والثقافية في ربـــوع ليبيا وانظمت إلى الكُتّاب والجامع لتصبح جميعا أهم المؤسسات الثقافية ، وازدهرت بفضل الأوقاف الكثيرة التي كان يوقّفها أُمراء الأتراك والمسلمين القادرين من أبناء الشعب الليبي ([8]) ، وتعدّدت أسماء الزوايا واختلفت من قطر إسلامي إلى آخر ، فالزّاوية فـــي مناطق إيـران هي (الخانقاه) ، أما فـــي غرب آسيا فإنها (الخلوة) ، وفي تركيا يطلقون على الزوايا (تكايا) ، وفي عدة مناطق من أقطار العالم الإسلامي ؛ ومنها منطقة الشمال الأفريقي غلب اسم الزاوية ([9]) ، وقد اتسع معنى الزاوية عند الحركة السنوسية ليشمل معناها التّطور والدقة في التنظيم ، كما زادت اختصاصاتها لتصبح النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة، وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية ([10]) ؛ وتتجاوز دور الزاوية من مجرد العبادة إلى تنفيذ إصلاح، والقيام بالدعوة .

والزاوية عند الحركة السنوسية هي مركز ديني وثقافي واجتماعي فهي عبارة عن فناء واسع تحيط به مرافق مسكن الشيخ و المسجد والمضيف وخلوات لسكن التلاميذ أو الأتباع ، ومكان لإيواء اللاجئين ومخزن للمتاع ، وتنشأ عادة في مكان حصين على جبل أو نحوه وهي أشبه بالقلعة ، إذا لزم الأمر للدفاع عنها ([11])

إن الزوايا السنوسية تختلف عن غيرها من الزوايا الأخرى من حيث الشكل و المضمون ، أي من حيث مواقعها وبنائها ، ومن حيث تنظيمها ورسالتها ، فلقد استطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية وجهادية .

وقد عرف ابن السنوسي الزاوية في إحدى رسائله الموجهة إلى حاكم فزان العثماني مصطفى باشا فقال : ((والزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده ، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بها البلاد ، ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية ، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان)) ([12])، وقال في رسالـة أخـرى : ((وأما نحن فقد ألفنا ما أعتدناه ورضيت به نفوسنا فنريد أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منها ((يعني الزاوية)) ويدوم من تعلم العلم وتعليمه ، وإقراء القرآن وتفهيمه ، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها و المقيمين بها))([13]) .

لقد استطاع ابن السنوسي أن يؤسس تنظيما هرميا للحركة فكان تشكيله كالآتي :

1 ـ شيخ الطريقة أو رئيس النظام ، وهو الرئيس الأعلى لها .
2 ـ مجلس الإخوان (الشورى) ومهمته مساعدة الشيخ في تعيين شيوخ الزوايـا .
3 ـ شيوخ الزوايا .
4 ـ الإخوان ، ومهمتهم كسب الأعضاء العاديين إلى الحركـة .

كما أصبحت في أواخر حياة ابن السنوسي زاوية الجغبـوب تمثل عاصمة الحركة، وجعل في البناء التنظيمي في الحركة أو زوايـا عليا ، يرأسها شيوخ الحركة السنوسية الكبار ، كزاوية أبي قبيس بمكة ، وزاوية البيضاء ، وزاوية درنة ، وزاوية بنغازي ، وكان لها الإشراف على ما حولها من الزوايا ، كما كانت مجالس الـدرس فيها على أعلى مستوى وأكثر تنوعاً واستجابةً للحاجات الدينية والعقلية ([14]) ، واستطاع ابن السنوسي أن يربط بين جميع زوايا الحركة برباط متين من المخابرات والمخاطبات ولجان التفتيش ، وفق نظام دقيق تلتقي أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية ، وكانت تلك الزوايا قد انتشرت في تونس والجزائر وبرقة ومصر والحجاز واليمن والسودان الأوسط (تشاد) وكانت تقارير هذه البلاد ترد أولا إلى بنغازي ثم ترسل إلى الجغبوب بواسطة الهجن وبسرعة عظيمة ([15])، وجعل من الزوايا خلايا حية تمتد منها الحياة الصالحة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية ، فأصبحت مراكز تربية وتهذيب وتعليم ، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة ، وتوجيه الحياة العامة توجيها سديدا ، فأصبحت مراكز إصلاح إنساني متكامل ، من الناحية الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية([16])، فلم تكن الزوايا السنوسية صوامع أو أديرة للنساك والرهبان والمتعبدين المنقطعين للعبادة ، أو حلقات للدراويش المنصرفين عن شؤون الدنيا ، بل إن أهم ما يجب أن يلفت النظر إليه في شأن هذه الزوايا السنوسية هو أنها كانت مراكز اجتماعية ودينية كبيرة ([17]).

إن البناء التنظيمي للزوايا في الحركة السنوسية يدلنا على أن ابن السنوسي استفاد من سنة الأخذ بالأسباب استفادة كبيرة ، وكان مقتنعا بأن نهوض الأمة يستلزم من العاملين من أجل هذا الهدف أن يستوعبوا سنة الأسباب ، وأن يحسنوا التعامل معها ؛ بحيث يستطيعون أن ينزلوها على أرض الواقع ، فمفهوم التوكل عند ابن السنوسي ، يعني : الأخذ بالأسباب المادية المتاحة مع الاعتماد على الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ولذلك استطاع أن يبني البناء التنظيمي البديع المتين ، وفق أسس ونظم رائعـة .

المبحث الثاني ـ نشـأة الزوايـا السنوسيـة في فـزان وأهم هذه الزوايا :

نشأت الزوايا السنوسية في فزان كغيرها من أقاليم ليبيا الأخـــرى (برقة وطرابلس)، وكان أكبر عدد من الزوايا أنشئ في عهد السيد محمد بن علي السنوسي في مناطق فـزان كان في زلة ، سـوكنة ، هـون ، وودان ، وقد فرغ من بنائها سنة 1855م ([18]) . ، وقد ازداد عدد الزوايا السنوسية في فزان حتى بلغ عند وفاة محمد المهدي محمد بن علي السنوسي عام 1902م ، خمسة عشر زاويـة ([19]) ، وقد تميزت مواقع الزوايا السنوسية ، بصفات سياسية وتجارية وعسكرية ، فمن الناحية السياسية نجد الزوايا تنتشر في الدواخل أكثر من انتشارها في السّـواحل ، وذلك راجع إلى حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن نفـــوذ السلطة الحكومية ، ولذلك فضل ابن السنوسي أن يتوغّـــل بزواياه في الصحراء ومنها صحراء فزان ، وحرص على أن يوضّـــح غرضه الدّعوي من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثماني في ليبيا تفادياً للصدام بها ، فكتب إلى مصطفى باشا ـ حاكم فـزان ـ عند بناء إحدى الزوايـا هناك : " إن الزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيـوت الله ومسجد من مساجـده ، والزوايا إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة ، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفـع لأهل الحاضرة والباديـة ؛ لأنها ما أسست إلا لقـــراءة القرآن ، ولنشـر شريعة أفضـل ولـد عدنان " ([20]) ، وبالتالي فقد كان إنشاء الزوايا السنوسية في فـزان له فوائده العديدة على أهل فـزان ، ومن هذه الفوائد نشر الـدين الإسلامي والسنة النبوية المطهرة والعديد من العلوم المختلفة ، ونشر الأمن والأمان في قرى وأرياف فـزان ، وتأمين الطرق التجارية التي تمر عبر فزان ، واستقرار الناس ورواج تجارتهم وخاصة بالقرب من هذه الزوايا ، وغيرها من المزايا والنجاحات التي حققتها هذه الزوايا على مستوى فـزان خاصة ، أو على مستوى نجاح الحركة السنوسية عامة ، وتتمثل في فرض تعاليمها وسلطانها على معظم المناطق التي تتواجد فيها هذه الزوايا وحولت هذه الزوايا الكثير من المدن والقرى والواحات إلى مجتمعات ذات نشاط ثقافي وعلمي واجتماعي واقتصادي وجهادي واضح ، والتي سنتعرض لها لاحقاً بالتفصيل في هذه الدراسة العلمية .

ـ بعض الزوايـا السنوسية في فزان وأهمهـا :

1ـ **زاوية مـــــرزق** : وكان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبوالقاسم التواتي ، ومن بين من تولى مشيختها أيضا سيدي عبد اللطيف بن عبيد .

2- زاوية واو : وكان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبوالقاسم التواتي ، ومن بين من تولى مشيختها بالوكالة العلامة محمد بن الشفيع ، ثم اسندت مشيختها إلى محمد بن علي عمر الأشهب: فابنه نجم الدين .

3ـ **زاوية زويلة** : وكانت تحت إشراف العلامة أحمد أبوالقاسم التواتي .

4- زاوية هون : وكان أول من تولى مشيختها أحمد بن علي بن عبيد ، ومن بين من تولى مشيختها أيضا سيدي مصطفى الهوني .

5- **زاوية سوكنة :** وكان أول من تولى مشيختها سيدي الشريف حامد بركات .

6- **زاوية غـات :** وكان شيخها أحمد الغاتي . [21]

هذه بعض الزوايا السنوسية والمراكز الإصلاحية في فـزان ، التي تمكنت من ذكرها والتي أنشئت في زمن ابن السنوسي ، ولا أزعـــم أني استطعت حصرها كلها، وهذا يدلنا على انتشار الحركة السنوسية وتوسعها وإقبال الناس عليها ، وقوة نظامها وحسن إدارتها ، وكانت الزوايا السنوسية في كل مكان وجدت فيه لها مواردها المالية للصرف على رسالتها التي تتمثل في العقارات والنخيل ، حتى أن بعض الزوايا تبلغ أحباسها إلى العشرين ألف نخلة كـزاويـة مـرزق - بفـزان - وشيخ الزاوية هو المكلف بالأحباس ، ودخل الزاوية ، وعند كل سنة يبعث إلى الشيخ الأكبر ما فضل من الدخل وما أتاه من الفتوحـات على يده ([22]) .

ويلاحظ الباحث أن جل الزوايا ترتكز في الصحارى ، وهذا يرجع إلى اهتمام ابن السنوسي بالبوادي ، لأنه أراد أن يعمل بحرية بعيدا عن متناول يد السلطة ، فأوغل في الأماكن الداخلية الصحراوية والأرياف والبوادي ، ولأنه رأى في أهل البادية تربة خصبة يزرع فيها أفكاره الإصلاحية ، ووجد فيهم نفوساً متهيئة لحمل الدعوة ، كما كانوا أكثر استجابةً واندفاعاً من غيرهم لحمل تعاليم الحركة السنوسية ، لذلك وقع اختيار ابن السنوسي على برقة كمركز لنشاطه ، حيث كانت تقطنها عدة قبائل بدوية تحمست للدعوة الإسلامية ، وكانت مؤسسات الحركة تناسب البادية واحتياجات أهلها ، فأوجد الزوايا السنوسية ونظمها لتكفي حاجات المحيطين بها التعليمية والقضائية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والتربوية ، ولذلك نجحت الحركة في البوادي ، ولم تنتشر الدعـــوة في المدن ، فأهل المدن لم يكونوا بحاجة إلى مؤسسات الحركة ، فعندهم المؤسسات الحكومية التي تؤدّي لهم الخدمات التعليمية والقضائية والاقتصادية ، والسياسية ، ولذلك نلاحظ أن الزوايا التي أسست في المدن لم تكن تقوم بوظائفها ، كما

تقوم بها زوايا البادية التي أسست في برقة وفزان ، كما أنه كان دورها كحلقة وصل بين الحركة في البادية والحضر ، كزوايا بنغازي ، ودرنة ، وطرابلس .

إن الاهتمام بدعوة القبائل مهم جدا ، وحصر الدعوة في المدن ، وطبقات معينة من المجتمع يتنافى مع أصول دعوة الإسلام الخالدة ؛ ولذلك لابد من الاهتمام بالبدو والأرياف وكل طبقات المجتمع لتوصيلها دعوة الله تعالى كما فعلت ذلك تماماً الحركة السنوسية .

لقد كان من حظ ليبيا الوافر بشكل عام وفزان بشكل خاص أنها حظيت بانطلاق الحركة السنوسية على أرضها وبين جموع مواطنيها ، فكان لها الأثر العظيم في تطهير نفوسهم من الشوائب التي علقت بعقيدتهم عبر العصور التي تداولتهم فيها الحكومات المختلفة التي عنيت بالأرض وأهملت من عليها .

المبحث الثالث ـ أهمية الزوايا في مجال الدعوة إلى الإسلام وتعليم ونشر اللغة العربيـة :

لقد كان من ضمن أهداف مؤسس الحركة السنوسية السيد محمد بن علي السنوسي نشـــر اللغة العربية وتعليم القرآن الكريم وعلوم المعرفية الأخـــرى والدعوة إلى الدّخول في الإسلام ؛ فقام واتخذ من بناء الزوايا وسيلة لتنفيذ أهدافه وتطبيق برنامج دعوته الإصلاحية التي حبيت بها ليبيا ، والتي يقوم برنامجها على تدريس القرآن الكريم وعلم الأحاديث الشريفة وعلوم اللغة والحساب والمنطق والتاريخ والجغرافيا ، كما يشتمل برنامج دعوته على تعليم العديد من المهارات والمهن الفنية كأعمال النجارة والحدادة والغزل والخياطة والنسيج وصنع الأحصرة ، والبناء والزراعة ، وممارسة الرياضة وفنون القتال ، ولذا كان بين أتباعه نوابغ العلماء والبنائين المهرة والنجارين البارعين والمزارعين ، وفنيون في صناعة البارود والأسلحة النارية ، والبيضاء كالسيوف والمدى والخناجر وغيرها([23]).

لقد كانت وظيفة الزوايا التعليمية على درجة كبيرة من الحيوية ؛ لأنها جعلت التعليم الديني والدعوة إلى الإسلام هو محور نشاطها ومركز اهتمامها ، وإن عد ذلك قصوراً في رسالة المؤسسات التعليمية بمفهومها المعاصر ، فإن اقتران النظر بالعمل في ظل نظام الزوايا كان عملاً إيجابياً يحسب للزوايـا، فلقد قامت الزوايا بتنشئة طلاب العلم تنشئة عملية على التزام الفضائل واجتناب الرذائل ، والاهتداء بالقدوة الطيبة من قادة

الزوايا ، والتمسك بما جاء بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية من مبادئ، إلى جانب ما درج عليه السلف الصالح ، والابتعاد عن كل ما خرج عن ذلك أو يخالفه .

وقد شملت الزوايا من مؤسسات التعليم مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي وتعليم ونشر اللغة العربية ، كما شملت مسجداً لأداء الفرائض ووعظ الناس واجتماع الإخوان للذكر وتلاوة القرآن الكريم جماعة ، وهو ما يسمى بالحزب ، وقراءة الأوراد دون شطح أو تمايل وإنما بأدب وخشوع (24) ، فإذا ما أتم طالب العلم الدراسة بالزاوية - كمرحلة متوسطة - ينتقل إلى التعليم العالي في الجغبوب حيث يوجد علماء إجلاء متضلعون في الدين واللغة العربية والطريقة السنوسية (25).

ولقد اهتم مؤسس الحركة السنوسية السيد محمد بن علي السنوسي بكافة العلوم وخاصة العلوم الشرعية ، ويتضح ذلك جليا من خلال كتبه ومؤلفاته التي بلغت أكثر من أربعين مؤلفاً بقي بعضها ؛ وفُقد بعضها الآخر أثناء الاحتلال الإيطالي لليبيا ، ومن أشهر هذه المؤلفات : " الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية " ، وهو كتاب تاريخي يتناول فيه ملوك الأدارسة ودولهم بالمغرب ، وكتاب " ريحانة الخبوب في عمل السطوح والجيوب " ؛ وهو كتاب في الرياضيات ، و- أيضا- كتاب في العلوم بعنوان : " المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق " ، وكتاب بعنوان: " السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين " ؛ وهو كتاب تصوف يسرد حقائق عن أربعين طريقة صوفية ؛ ويؤكّد أن الطرق إلى الله كثيرة ولكنها في الحقيقة واحدة ؛ إذ مطلوب الكل واحد (26) ، كما ألف صاحب الطريقة السنوسية ومؤسسها كتب ومؤلفات أخرى دينية في موضوعها مثل : " المسائل العشر وبغية المقاصد في خلاصة المراصد " ، وكتاب : " إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن " ، و" مقدمة لموطأ الإمام مالك " ، وغيرها من المؤلفات التي حوت أفكاره وأسس دعوته الإصلاحية ذات الثلاثة دعائم دينية واجتماعية وسياسية (27).

لقد كانت الزوايا السنوسية ومدارسها في فزان وغيرها من أقاليم ليبيا ، بل وحتى خارج ليبيا مراكز علم ومنارات تشع بالمعرفة ، وبعد أن كانت المدارس في المجتمع الليبي شبه معدومة ، فقد جعلها السيد محمد بن علي السنوسي منتشرة في كل الأرجاء ، وجعل التعليم حقيقة واقعة بعد أن كانت حلما بعيد المنال ، حيث وفّرت الحركة السنوسية المدارس لتعليم النشء الجديد القراءة والكتابة ، وقد كانت القبائل تتبرع بالأراضي التي تقام عليها الزوايا السنوسية ، وتشيد عليها المدارس التعليمية ، وتفلح

فيها الأطيان الزراعية ، حتى إن مساحة الأراضي التي كانت تملكها الحركة السنوسية، والتي تشغل زواياها ومدارسها ومزارعها ومراكز تدريبها جزء منها ، قد بلغت أكثر من خمسين ألف هكتار ([28]) ، ولقد كانت الزوايا السنوسية أشبه بالمركز الثقافية التي تنتشر في العصر الحاضر في أنحاء العالم ، وكانت الزاوية تشمل مدرسة قرآنية لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدّين الإسلاميّ واللغة العربية ، ومن يمتاز من الأطفال يلتحق بالزاوية الأم سواء كانت البيضاء أو الجغبوب التي صارت مناخ العلوم ، ومنبع القرآن العظيم ، والتي حوت مكتبتها على ثمانية آلاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية ([29]) ، فقد كانت مواد الدّراسة بالزاوية تَشمل جميع العلوم الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وأصول الفقه والفرائض والتصوف والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها ، كما كان طلاب العلم يتدربون على إتقان بعض الحرف والصناعات مثل : صناعة البارود والأسلحة ([30]) ، وكانت زاوية الجغبوب بمثابة المعهد الأعلى الذي يقوم بالتدريس فيه صاحب الدعوة بنفسه وغيره من كبار العلماء ، وكان صاحب الدعوة يطمع في أن يصل بهذا المعهد إلى مستوى الجامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بفاس بالمغرب الأقصى.

ولقد حافظت الزوايا على التراث الثقافي العربي الإسلامي في ليبيا أثناء الاحتلال الإيطالي ، بل قبل هذا الاحتلال عندما لم تكن هناك مدارس حكومية في البلاد ؛ إذ كانت الثقافة الشعبية كلها مستمدة من هذه المدارس القرآنية الملحقة بمبنى الزاوية ، وتتضح قيمة رسالتها الثقافية أيضا إذا عرفنا أنها كانت بمثابة المدارس التي تقوم الآن بفتحها الحكومات الحالية دون أن تكلف من يلتحق بها شيئا من النفقات ؛ بل كثيرا ما كان يستعين بعضهم بما تقدمه له الزاوية من معونة لمقابلة تكاليف الحياة ([31]) ، وكان علماء الزّاوية يمنحون طلابهم الذين يتمّون دراساتهم اجازات علمية يباشرون بها تعليم طلاب جدد لفرع المعرفة الذي أجيزوا فيه ، أو يمارسون الإفتاء أو القضاء ، أو يقومون بمهمة التبشير بالدّين الإسلامي في وسط أفريقيا وغربها ، وكان تأثيرهم على من يتصل بهم كبيرًا نظرًا لتفوقهم في التعليم الديني وتمكنهم من علوم الدّين الإسلامي ([32])

وفي مجال الدّعوة إلى الإسلام ، فقد كانت الزّوايا السنوسية لها دور كبير في ذلك ، فلقد دخلت عِدة قبائل افريقية إلى الإسلام بفضل الله - تعالى - ثم جهود الحركة

السنوسية ، ومن أشهر القبائل التي استجابت لدعاة الحركة السنوسية : قبيلة بلى التي كانت على الوثنية ، ووصلت الدعـــوة الإسلامية إلى شعب التيدا - قبيلة التبو - في بلاد تيبستي بالصحراء الكبرى جنوب فـزّان ، فقد كانوا لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وكان دعاة الحركة السنوسية قد توغلوا في افريقيا ووصلوا إلى بلاد الجلا في الحبشة ، حيث كانت تتمتع السنوسية بنفوذ كبير ، وكانت الحركة السنوسية تفتح المدارس وتبني المساجد ، والمراكز الإصلاحية وتشتري العبيد ثم يعلمونهم مبادئ الإسلام ، ثم يعتقونهم ويرسلونهم إلى أوطانهم وقبائلهم ليدعوا أقوامهم إلى الإسلام ([33]) .

فقد كانت الحركة السنوسية – التـــي يعدّها بعضهم طريقة صوفية - لها دورها البارز في نشـــر الإسلام في واداي ، والباجرمي ، و بورنو ، ونواحي بحيرة تشاد، وكانت طريقة السنوسيين في نشر الإسلام بين الأفارقة تقوم على شـــراء الأرقاء صغارا من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من السودان (كل البلدان الموجودة وراء الصحراء الكبرى يطلق عليها السودان) ؛ ويربونهم في زواياهم سواء بالجغبوب أو غيرها ، فإذا بلغوا أشدهم وأكملوا تحصيل العلم أعادوهم إلى بلادهم فيهدون أهاليهم ، إلى جانب الدعاة السنوسيين الذين انتشروا في أفريقيا وفي غربها بصفة خاصة ([34]).

واستفادت الحركة السنوسية من هجرة القبائل العربية القديمة في افريقيا ، وجددت الصلة معها ونسقت معها في الدعوة إلى الإسلام وفي الجهاد ضد فرنسا ، ومن أشهر هذه القبائل ؛ أولاد سليمان ، أولاد يعقوب ، أولاد غنام ، والمحافيظ ، وغيرها كثير ، وكانت قد استقر بعضها في مالي ، وتشاد ، والنيجر ، ونيجيريا ، والكاميرون ([35])

وتمكّن الإمام محمد المهدي السنوسي من أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في واداي ، وبرنو ، وكانم ، وغيرها ، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقيا ثم إعداد العدة لمكافحة هذه الدول إذا جد الجد ، كما فعل مع فرنسا ([35]) ، وواصـــل الإمام محمد المهدي السنوسي ســـيره في فتح المركز الإصلاحية والمدارس القرآنية وبناء المساجد التي اهتمت بنشر الإســـلام ، وقام بإرسال دعاة ومبشرين بالإسلام ودين الله ، اشتهر منهم : العلامة محمد عبدالله السني ، والشيخ حمودة المقعاوي ، وطاهـــر الدغماري ، وغيرهم كثير ([36]).

المبحث الرابع ــ أهمية الزوايا الاجتماعيـــــــــــة :

لقد كانت الوظيفة الاجتماعية للزوايا السنوسية ركنا أساسيا من تكوينها ومن المبادئ التي تسترشد بها في تحقيق كيانها ، فإن استضافة العابرين لمدة ثلاثة أيام كما تقضي

العادات العربية ، والفصل بين الناس بالحسنى ، والمصالحة بين القبائل المتنافرة المتحاربة ، وتأمين الطرق عبر الصحراء من قطاع الطرق والمغيرين بهدايتهم ، والمؤاخاة بين المسلمين ، كل ذلك وغيره جعل من الزوايا السنوسية مركز إشعاع علمي ومنبع دعوة إسلامية مهذبة صحيحة ، جددت من آثار الإسلام ما درس منها في حقب طويلة توالت على صحراء برقة وفزان وغيرها كانت السيادة فيها للجهل والفقر والفوضى ([37])، فالدور الاجتماعي للزوايا السنوسية كان له أهمية عظيمة ، فقد نجحت الزوايا في إزالة حالة التوتر المستمر بين القبائل التي كان لاهم لأفرادها غير التفكير في شن الغارات ، والأخذ بالثأر ، فكثيرا ما سعى شيخ الزاوية واخوانه في الصلح بين القبائل المتنازعة على بئر أو أرض ، أو ما شابه ذلك ، ويحرصون على حقن الدماء وذلك بتحمل دية القتيل ، فساد في البلاد جو الهدوء والأمن والاطمئنان ، مكن الناس من الانصراف إلى العمل والإنتاج(.[38]) ، والـــزّوايا السنوسية قامت بدور اجتماعي مهـــم ، ألا وهو ما ضمنته للقبائل من أمـــن وطمأنينة ومصالحة بين القبائل ، وتشجيعها على الاستقرار ؛ إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها ، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعا من حياة الاســـتقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلا ([39])، وقد عثر المـــؤرخ أحمد صدقي الدجاني على وثيقة بتاريخ (9 رجب 1297هـ) ؛ تتحدث عن خصام وقع بين أهالي هون وسوكنة استطاعت زاوية هون السنوسية أن تزيل الإشكال ، والوثيقة مقدمة من ثمانية عشر رجلا من أعيان هون إلى متصرف فزان يخبرونه بانتهاء الخلاف . ([40])

لقد كان شيخ الزاوية السنوسية يتصرف باسم رئيس الحركة السنوسية ، وكان القاضي التحكيمي في نزاعات القبائل ، وكان يحض القبيلة على الجهاد ، ويتصرف كوسيط بين القبائل أو بطونها ، وبين الإدارة التركية ، ويقوم بواجبات الضيافة ، ويترأس حملة جمع أعشار الغلال ، ويشرف على زراعة الحبوب ، ويهتم بالتموينات ويرسل الفائض منها إلى مقر رئيس الحركة السنوسية ، ويؤم الجمعة ، ويقدم العون في تقديم المواعظ وفي التعليم . ([41])

إن اهتمام ابن السنوسي بالقبائل والبوادي كان ملموسا من خلال الزوايا السنوسية ودورها الاجتماعي وأدوارها الأخرى ، وسعيه بأن تكون هناك علاقات وصداقات بين

هذه القبائل بعضها البعض من جهة ، ومن جهة أخـــرى بين هذه القبائل والبوادي وبين أهل الحضر أو المدينـة من جهة أخرى ، بحيث تكون هناك زيارات متبادلة ينزل فيها البدوي أو الريفي عند أخيه الحضري وينزل الحضري عند أخيه الريفي (42) . ومن هنا تبرز أهمية الزوايا السنوسية في المجال الاجتماعي الذي يدل دلالة واضحة على عمق جذور الحركة السنوسية في نفوس الناس وتقبلهم لجميع أفكارها وكل ما تدعو له من مبادئ وأهداف سامية .

المبحث الخامس ــ أهميـة الزوايا الاقتصادية :

لاشك أن للزوايـا السنوسيـة أهميتها الاقتصادية ، فقد أتاحت الزوايـا الاستقرار والأمن فنشطت حركة القوافل التجارية بفضل ما كانت تجده هذه القوافل من مساعدة وعون بعد أن كانت هدفا للسلب والنهب ، هذا فضلا عما كانت تجده القوافل التجارية من مساعدة وراحة إذا وصلت إلى إحدى هذه الزوايا (43) ، كما أن الحركة السنوسية شجعت الليبيين على حبّ العمل وزيادة إنتاجهم الزراعي ، بتشجيع القبائل على الاستقرار بعد طـــول ترحال ، واستغلال مياه العيون والآبار في زراعة المساحات الصالحة للزراعة ، وضرب المثل العملي بأن يُســـهم كل العاملين في كلّ زاوية بالزراعة يوم في الأسبوع في الأرض المحيطة بالزاوية (44) ، وكانت الأرض التي تقام عليها الزاوية تعتبر مقدســـة وتسمّى حراما ، وكان الأمان مضموناً لكل من يخطو فـــوق الأرض الحرام طلباً للغوث أو الحماية ؛ إذ لم يكن مسموحاً فيها استعمال السلاح أو إثارة المنازعات أو ما أشبه ذلك ، وكانت الأراضي المحروثة ،والآبار ، والخزانات التي تجمع فيها مياه الأمطار تسمى حراماً ، وكان لكثير من الزوايا السنوسية بساتين ؛ بل ومقبرة خاصـة (45)، وعند بناء الزاوية السنوسية كانت العوامل السياسية ـ الاقتصادية والإستراتيجية تؤخذ بعين الاعتبار ، فقد كانت تبنى في فزان وبرقـة وطرابلس بصورة يتحقق منها الإشراف على القبائل الكبرى وبطونها ، وفي العادة كانت الزوايا تبنى على خطوط القوافل الرئيسية وعلى شطآن الخلجان البحرية بهدف الإشراف على التجارة بالسواحل ، وكانت أماكن تـــوزع الزوايا في الوقت نفسه ، نقاط اعتماد مريحة في حالات الدفاع ، وعند اختيار الرقعة كان أكثر ما يوضع في الحسبان ملائمتها للحياة المستقرة ، وللعمل في الزراعة (46) ، كانت أراضي الزوايا السنوسية وقفاً فلم يكن بالإمكان بيعها ، بل كانت على اسم الزاوية إلى الأبد ، وكانت هذه الأراضي تتوسع على حساب الهبات التي كانت تقدمها القبائل وبطونها والأفراد ، وعن طريق الشراء

واستصلاح الأراضي القفر ، وإصلاح الآبار ، وتخليص الأراضي المتنازع عليها بين القبائل لصالح الزاوية ، واستغلال الأرض للزراعة بتفويض من مالكها ثم استملاكها بصورة تدريجية بعد ذلك ([47]) ، وفي فترات الزرع والحصاد، كان شيخ الزاوية يضرب خيمته بالقرب من المنطقة المخصصة لـــزراعـــة الحبوب أو حيث يجــري الحصاد ، ويشـــرف على الأعمال ، وكان البدو المحليون يجيئون بمواشيهم العاملة فيحرثون ويبذرون للزاوية على مدار يوم واحد ، وكان الأمر نفسه يحدث في فترة الحصاد، ويكتب شكيب أرسلان أن جماعة الزاوية درجت على أن يتبرع كل فرد في القبيلة بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم في أرض الزاوية ، فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون نفقه كبيرة .

فالحياة في الزاوية منظمة تنظيماً دقيقاً ، بل إن النظام المفروض كان إلزامياً حتى بالنسبة للشيـخ نفسـه ([47]) ، ففي نهاية العام كان شيخ الزاوية يقدم لرئيس الجمعية وبطريقة شخصية تقريراً مفصلاً بنشاطه واقتراحاته بالنسبة للمستقبل ، وعادة ما كان يرافقه وجهاء القبيلة في ذلك .

وقام الإمام محمد المهدي السنوسي بتقوية الصلات التجارية بين الزوايا السنوسية وبين مراكز التجارة والأســـواق المختلفة ، ونتج عن ذلك استتباب الأمن في هذه الربوع وانتشار الطمأنينة ، فقد زاد نشاط القوافل وأقدم المسافرون والتجار على قطع الفيافي والصحارى من غير تردد ، فظهرت بوادر العمران في الطرق الصحراوية ، وأصبح من الميسور على دعاة الحركة أن يصحبوا هذه القوافل وهؤلاء المسافرين والتجار في رحلاتهم وأسفارهم ويدعوا إلى الإسلام ، ويقضوا على الوثنية ، ويعطلوا أعمال التنصير الذي تدعمه الدول الأوروبية في أفريقيا ، وبالفعل حققت الحركة انتشاراً عظيماً في أوساط أفريقيا مثل بلاد النيجر والكونغو ، والكاميرون ، وجهات بحيرة تشاد . وذاع خبر الحركة السنوسية في أفريقيا من خلال طريق واداي وبرقو وكانم وأداموا والداهومى وغيرها . وبدأت الدول الأوروبية تشعر بخطر الحركة السنوسية ، فشرعت في حبك دسائسها ومؤامراتها وتأليب الدولة العثمانية عليها ، لقد صدمت الدول الأوروبية بالنتائج التي حققتها الحركة السنوسية ، واشتاطت غضباً وحقداً على الإسلام ، وهي ترى قبائل وثنية مثل : التبو ، والبرقو ، والندى تدخل طائعة مختارة في الإسلام ([48])

وكانت التجارة تلعب دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية لليبيا ، فمن بين الخطوط الرئيسية الأربعة للتجارة عبر الصحراء ، كانت ثلاثة تمتد عبر التراب الليبي، وكان

أهمها : خط طرابلس - غدامس - غات - زنيدر - كانو ، وكان ثانيهما من ناحية الأهمية : خط طرابلس - مرزق - بيلما - بحيرة تشاد ، أما الخط الثالث (أو ما يسمى بالطريق الشرقي) ، فكان يمتد من بنغازي إلى واحات جالـــو والكفرة عبر هضبة تيبستي فإمارة واداي ، وكانت طرق القوافل تتقاطع فيما بينها لتشكل شبكة متداخلة من الطرق في المحيط الرملي المترامي الأطراف والخالي من السكان([49]) ، طبعاً كانت معظم الطرق التجارية في ليبيا تحت حماية الزوايا السنوسية التي كانت تجني أرباحاً طائلة نظير حمايتها لطرق القوافل التجارية عبر واحات ومدن ليبيا والدول الأفريقية ما وراء الصحراء الكبرى ، وكانت هذه التجارة تقوم على نظام المقايضة في الغالب ، وكانت البضائع الأفريقية مختلفة ومتنوعة فمثلاً كانوا ينقلون ريش النعام وعاج الفيل وتبر الذهب والفراء والجلود وغيرها ؛ بالإضافة لتجارة الرقيق التي كانت تأتي من البلدان الأفريقية عبر واحات فزان والكفرة إلى طرابلس وبرقة ثم تشحن عبر الموانئ الليبية إلى أوروبا ، وأحيانا هناك طرقاً برية تتجه إلى سيوة المصرية ثم إلى الإسكندرية بمصر ([50])، ولكن بمجيء الاحتلال الأوروبي لدول شمال ووسط وغرب أفريقيا ضعفت تجارة القوافل بشكل كبير .

المبحث السادس ــ أهمية الزوايا الجهادية :

لقد كافحت الحركة السنوسية الاستعمار الأوروبي الصليبي سواء الاحتلال الفرنسي لتشاد ، أو الاحتلال الإيطالي لليبيا ، وذلك عبر رجالها وزواياها السنوسية المنتشرة في ليبيا وخارجها ، فقد وقعت عدة حروب بين السنوسيين والمحتل الفرنسي لتشاد ، حيث كان السنوسيون ينشــرون زواياهم في الواحات وفي المنطقة المحصورة بين ساحل البحر المتوسط وحول نهر النيجر ، ومن الواضح إن الحركة السنوسية - لاسيما بقيادة محمد المهدي السنوسي – لا يقتنع بالعبادة دون العمل ويعلم أن أحكام القرآن محتاجة إلى سلطان لتطبيقها فكان يحدث إخوانه ومريديه دائما على الفراسة والرماية ويبث فيهم روح العنف والنشاط ، ويحملهم على الصبر والجلاد ؛ ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد ، وقد أثمر غرس وعظه في مواقع كثيرة، فأصبح لديهم قوة مادية تضارع قوة الدول الكبرى وتصارع أعظمها جبروتاً وكبراً، بل كانت سبباً في الحروب مع الفرنسيين في مملكة كانم ومملكة واداي من السودان الأوسط ([51]) فالحركة السنوسية كانت تضم تشاديين وليبيين وكانت الحركة تخشى من أن يقضي مجيء القوات الفرنسية المصاحبة للتنصير على ما بناه المسلمون في هذه المناطق ، وعليه فإن الدفاع عن المناطق الشمالية

من تشاد صار واجباً يفرضه الدين ، باعتباره جهاد لحماية الدين، وليس قائم على فكرة انتماء وطني لتشاد، بدليل أنهم قد عادوا إلى ليبيا بعد خروج الأتراك منها عام 1912، وبعد هزيمتهم في عين (كلكة) وبدأوا محاربة الاستعمار الإيطالي والإنجليزي ([52])

لاشك أن طبيعة الجهاد غير متكافئة مع جيوش العدو من حيث العدد والعتاد ، فالأسلحة الفرنسية بالمقارنة مع أسلحة المجاهدين الذين لا يملكون غير بنادق خفيفة وسهام كانت أسلحة ضعيفة ، ويقول أ .د /الماحي : (وجد الفرنسيون أنفسهم منذ السنوات الأولى في تشاد في صراع مع عدو قد يكون أقل ضراوة على المستوى العسكري ، ولكنه عدواً أكثر مهارةً على المستويين النفسي والدبلوماسي ، عدو يشعر بالعزة والطمأنينة وهو يدافع عن مبادئه الدينية ، ومصالحة القومية مما جعل المقاومة شديدة في الجبهة الشمالية والشرقية ، إلا أن عدم تحالف سلطان باقرمى مع القوى الوطنية الأخـــرى فتح ثغرة كبيرة في الجبهة الجنوبية للتغلغل الفرنسي ([53])

وقد توفي محمد المهدي السنوسي أثناء المعارك في بئر العلالي عـام 1902م ، وخلفه في رئاسة الحركة السنوسية السيد / أحمد الشريف الذي توقفت الحركة في عهده عن النمو والانتشار والسبب في هذا يعود إلى الحروب السنوسية الفرنسية الإيطالية ، فاضطرت الحركة إلى صب جهودها وقواهـا في الجهاد المسلح حيث توقف النشاط الديني ، ولكن هذه المقاومة استمرت حوالي عشر سنوات (في شمال تشاد) دفاعا عن النفس والعقيدة الإسلامية ضد العدوان الصليبي الفرنسي الذي عمل على احتلال الزوايا السنوسية في السودان الأوسط وشمال تشاد ليثبت مركزه ويقضي على الدعوة الإسلامية واللغة العربية في أفريقيا ([54])، وتولى قيادة السنوسيين سيدي محمد البراني وعمر المختار وغيرهم ، إلا أنه ظهر منذ اللحظة الأولى أن الكفاح لم يكن متكافئاً ، ولذا ســـرعان ما سقطت المراكز السنوسية في أيدي الفرنسيين خلال سنتي 1902م ، 1903م ، وانتهى الأمر بانسحاب السنوسيين نحو الشمال تاركين الجنوب غنيمة للفرنسيين ([55]) ، كما أن كفاح السنوسيين من قواعدهم - الزوايا - ضد الغزو الإيطالي لليبيا ــ برقة بصفة خاصة ــ يعد ملحمة بطولية ؛ وكان الإيطاليون يدركون انتشار الزوايا السنوسية في أنحاء ليبيا ومصر والسودان والحجاز وتونس والجزائر وتشاد والنيجر ؛ وأن الطريقة السنوسية عقيدة دينية قوية متغلغلة في نفوس الليبيين لتجعل منها نفوساً قوية العزيمة لا تعرف الخوف ولا التردد وتضحي بكل شيء في سبيل الله والوطن

وهي تتميز بالنّظام والدقة في تنظيماتها القوية المتينة التي تشبه التنظيمات العسكرية (56) .

لقد كان تنظيم الزوايا الحربية نتيجة لدعوة الإمام محمد بن علي السنوسي بالاستعداد لمواجهة أعداء الأمة العربية الإسلامية ، ومن ثم كان من مبادئ الطريقة السنوسية تعلم الفروسية والرماية وفنون الحرب ، وكل الأتباع يجب أن يخضعوا لهذا التنظيم .

ومن هذا المنطلق وجدوا السنوسيين يقودون الدفاع عن برقة بتنظيم عسكري متين افتقدته بقية أنحاء ليبيا التي كانت القبائل المتنافرة المتصارعة فيما بينها هي التي تتولى الكفاح ضد الغزو الإيطالي ، ونتيجة لذلك نجد أنه في الوقت الذي توقف الكفاح في طرابلس و فزان مثلا بعد سنوات قليلة من بداية الغزو، استمر كفاح برقة بقيادة السنوسيين حتى أوائل العقد الرابع من القرن العشرين عندما سقط عمر المختار قائد السنوسيين في المعارك في سبتمبر سنة 1931 م ، كانت قـــــوة السنوسيين في مقاومة الغزو الإيطالي هي الإيمان بالله والتمسك بالمبدأ السنوسي الذي يحث على الجهاد وبعدالة القضية الوطنية التي تعد جزءاً مكملاً للعقيدة الدينية ، وكانت أهمية الزوايا السنوسية في الجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي بارزة وملموسة على أرض الواقع ، ومن ثم كانت صلابة البرقاويين السنوسيين في مقاومة الغزو الإيطالي واضحة فقد تحملوا وحشية الإيطاليين وحملات التنكيل والإبادة التي اتبعوها حتى مع أطفال ونساء البيت السنوسي .

الخاتمــة :

وفي ختام هذه الدراسة يمكننا أن نستخلص مجموعة من النتائج ، هذا موجز مركز لأهم نتائجها المستوفـاة :

1- إن الزوايا السنوسية كانت شعلة العلم التي حاربت ظلام الجهل ، في وقت لم تكن هناك منارات علمية إسلامية على أسس سليمة ، فقد أسهمت هذه الزوايا في تعليم اللغة العربية وتعلم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والكثير من العلوم ، وقامت بدور رائد في إرساء الحياة العلمية والثقافية في ربوع ليبيا ، وانضمت إلى الكتاتيب والجامع لتصبح جميعاً أهم المؤسسات الثقافيـة .

2- عملت الزوايا السنوسية في فزان على ربط المدن والواحات والقرى في ليبيا ، ومدت جسور التواصل مع البلدان الأفريقية .

3- حولت الزوايا السنوسية كثير من المدن والقرى والواحات والأقطار الأفريقية إلى مجتمعات ذات نشاط ثقافي واجتماعي واقتصادي وجهادي واضح ، بل وجعلت من هذه الأقطار كيانات سياسية تدافع عن الإسلام وتكافح من أجل التحرر والاستقلال ضد الغزو الأجنبي .

4- اختلفت الزوايا السنوسية عن غيرها من الزوايا ، حيث اتسع معناها ليشمل التطور والدقة في التنظيم ، وزادت اختصاصاتها لتصبح النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية ، وتتجاوز دور الزاوية من مجرد العبادة إلى تنفيد الإصلاح والقيام بالدعوة .

5- كانت الزوايا السنوسية الملاذ الآمن لكل خائف وجائع ، وكانت القاضي التحكيمي في نزاعات القبائل، تقوم بالفصل بين الناس بالحسنى ، والمصالحة بين القبائل المتنافرة المتحاربة .

6- دور الزوايا السنوسية في تأمين الطرق عبر الصحراء من قطاع الطرق بهدايتهم والمؤاخاة بين المسلمين .

7- شجعت الزوايا السنوسية الناس على حب العمل وزيادة الإنتاج الزراعي ؛ وشجعت القبائل على الاستقرار بعد طول ترحال ، وكانت الزوايا السنوسية وما يحيط بها من سكان وحقول ومزارع خير شاهد على ذلك .

8- كانت الزوايا السنوسية المحرض الأكبر على الجهاد ضد الاحتلال الأوروبي الصليبي ، فالزوايا كانت تعلم الناس فنون القتال وتعظم في نفوس أفرادها فضيلة الجهاد ، وكان شيوخ الزوايا على رأس جيوش المجاهدين الذين قادوا المعارك وقارعوا الاحتلال الفرنسي في تشاد والاحتلال الإيطالي لليبيا وأبرزهم المجاهد عمر المختار .

الهوامـــــــــش :

- هو الشيخ محمد بن علي السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي ، وفاطمة الزهراء بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذا النسب يختصره السنوسيون ليصبح محمد بن علي السنوسي الخطّابي الحسني الإدريسي ، وقد ولد في ناحية الواسطة من بلدة مستغانم بالجزائر في 12 ربيع الأول عام 1202 هـ الموافق 22ديسمبر 1787م كما تؤكد أكثر المصادر التاريخية دقة ، و قد نشأ صاحب الدعوة في بيت علم و دين فوالده و جده و أعمامه وأبناء أعمامهم كلهم علماء . للمزيد أنظر : علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2008م ، ص20 ؛ رأفت غنيمي الشيخ ، تاريخ العرب الحديث ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، 2005م ، ص (176-177) .

- أحمد صدقي الدجاني ، الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، 1967م ، ص236.

- محمد بن علي السنوسي ، الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي ، 1967م ، ص11 .

- الباحث .

- ن.إ. بروشين ، تاريخ ليبيا من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969 ، ترجمة وتقديم : الدكتور عماد حاتم ، مراجعة : الدكتور ميلاد المقرحي ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس - ليبيا ، 2005م ، ص 63 .

- جمعة محمود الزريقي ، التذكار فيمن ملك طرابلس ومن كان بها من الأخيار للشيخ أبي عبدالله محمد بن خليل بن غلبون المصراتي الطرابلسي المتوفى سنة 1150هـ ، دراسة وتحقيق : جمعة محمود الزريقي ، خاتمة الكتاب ، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية ، سلسلة نصوص ووثائق (42) ، طرابلس - ليبيا ، 2010م ، ص(158-159) .

- رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2011م ، ص284

- رأفت غنيمي الشيخ ، تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة ، دار الحقيقة ، بنغازي ، 1972م ، ص95

- للمزيد انظر : رأفت غنيمي الشيخ ، المرجع السابق نفسه ، ص96 .

- أحمد صدقي الدجاني ، مرجع سبق ذكره ، ص237 ، وللمزيد أنظر : ن- إ- بروشين ، مرجع سابق ، ص(63 - 68) .

- ماهر عطية شعبان ، دراسات وبحوث في التاريخ الأفريقي الحديث والمعاصر ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 2012م ، ص253

- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع سابق ، ص77 ؛ رأفت غنيمي الشيخ ، المرجع السابق ، ص322 .

- علي محمد الصلابي ، المرجع السابق نفسه ، ص78

- علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا ، ط3، دار المعرفة ، بيروت ، 2009م ، ص81

- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع سبق ذكره ، ص78 .
- علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا ، مرجع سابق ، ص82 .
- محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، مراجعة : يوسف المجريسي ، مركز الدراسات الليبية ، أكسفورد بريطانيا ،2005م ، ص86 .
- ن.إ.بروشين ، مرجع سابق ، ص65 .
- ماهر عطية شعبان ، مرجع سابق ، ص256 .
- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع سابق ، ص80 .
- علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا ، مرجع سابق ، ص(91 - 92) ؛ علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع سابق ، ص(88 - 89) ؛ محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، مرجع سابق ، ص108 .
- رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ـ ص325 .
- مصطفى أحمد بن حليم - رئيس وزراء ليبيا الأسبق - ، ليبيا انبعاث أمة وسقوط دولة ، دار الجمل ، كولونيا ، ألمانيا ، 2003م ، ص29 .
- رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، ص(328 - 329)
- المرجع نفسه ، ص329 .
- رأفت غنيمي الشيخ ، تاريخ العرب الحديث ، مرجع سابق ، ص179 .
- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- مصطفى أحمد بن حليم ، مرجع سابق ، ص29
- عثمان الحشائشي التونسي ، رحلة الحشائشي إلى ليبيا ، تحقيق : علي مصطفى المصراتي ، بيروت ، 1965م ، ص151 .
- رأفت غنيمي الشيخ ، تاريخ العرب الحديث ، مرجع سابق ، ص192 .
- رأفت غنيمي الشيخ ، تاريخ العرب الحديث ، مرجع سابق ، ص192 .
- رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، ص288 .
- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع سابق ، ص(149 - 150)
- رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، ص319 .
- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية ، المرجع السابق ، ص150 ؛ وللمزيد انظر : محمد سعيد القشاط ، جهاد الليبيين ضد فرنسا في الصحراء الكبرى 1854 - 1986 ، ط2 ، دار الملتقى ، بيروت ، 1998م ، ص14 .
- محمد فؤاد شكري ، السنوسية دين ودولة ، مرجع سابق ، ص102 .
- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع سابق ، ص150 .
- رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، ص327 .
- الأمين محمد الماعزي ، محطة من تاريخ ليبيا 1551 - 1951م ، دار الزين للكتاب ، الأبيض - فزان - ليبيا ، 2013م ، ص138
- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع ستبق ، ص82 .
- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع سابق ، ص84 .
- ن.إ. بروشين ، مرجع سابق ، ص67 .
- للمزيد أنظر : علي محمد الصلابي ، تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا ، مرجع سابق ، ص(94 - 95)
- رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، ص328 .

- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
- ن.إ. بروشين ، مرجع سابق ، ص66 .
- ن.إ. بروشين ، المـرجـع السابق ، ص66.
- المرجـع نفسـه ، ص68 .
- المـرجـع نفسـه ، ص69 .
- ما كان الشيخ - مثلا - قادر على الزواج إلا بمشورة شيخ الطريقة ؛ وموافقته ، وكانت الزاوية تدفع مصاريف حفل العرس ونفقات الزوجة والأطفال ، ولكن إذا حدث وتزوج الشيخ زوجة ثانية ، كان عليه أن يدفع تلك المصاريف من جيبه الخاص ، وكانت مصاريف شيوخ السنوسية محسوبة بدقة ، وكان للشيخ الحق في شراء فرسه وسلاحه ، ومن النفقات العامة كانت تصرف نفقات الخدم ، الذين يكتريهم الشيخ ، بناء لمتطلبات الزاوية ، وكان من بين واجبات الشيخ الاستقبال اليومي للضيوف (ولكن بما لا يقل عن عشرة أنفار) ، وكان له الحق في اقتطاع العشر من كافة موارد الزاوية ، (بما في ذلك الغلال) ، وذلك لتغطية نفقاته الخاصة ، بالإضافة إلى كل هذا كان يسمح للشيخ بالقيام بأعماله الزراعية بصورة مستقلة . للمزيد انظر : ن.إ. بروشين ، مرجـع سـابـق ، ص(69 - 70) .
- علي محمد الصلابي ، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، مرجع سابق ، ص(150 - 151)
- ن.إ. بروشين ، مرجع سابق ، ص36 .
- للمزيد انظر : ن.إ. بروشين ، المرجع السابق نفسـه ، ص34 .
- ماهـر عطية شعبـان ، مرجع سابق ، ص250 .
- عبد الرحمن عمر الماحي ، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1982م ، ص51 .
- المرجع نفسـه ، ص147 .
- ماهر عطية شعبان ، مـرجع سابق ، ص251 .
- رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات أفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، ص326 .
- زاهر رياض ، استعمار أفريقيا ، القاهرة ، 1965م ، ص159 .